حلم سوريّ يتحقّق اسمهُ الحريّة: «في تحرير الحريّة من سجنها»

روزا ياسين حسن

«حريّة... حرية»: هو الهتاف الأول الذي صدح في سماء سوريا كفاتحةٍ للثورة. كان ذلك في مدينة درعا الجنوبيّة في ١٨ آذار من هذا العام، قبل أن يفرّق عناصرُ الأمن وقوات حفظ الشغب المظاهرة الوليدة تلك بالغازات المسيلة للدموع، ومن ثمّ بالرصاص الحيّ. قلت «الهتاف الأول» لأنّ المظاهرتين اللتين خرجتا قبلاً في دمشق، في سوق الحميديّة (١٥ آذار) وفي ساحة المرجة (١٦ آذار)، حوصرتا سريعًا وكانتا شبه صامتتين! ولقد دفع شبابُ درعا ثمن ذلك الهتاف الأول في ذلك اليوم الأول شهيدين، هما حسام عيّاش ومحمود الجوابرة. ثم كرّت سبحةُ الأثمان تلك، مسرعةً حتى اليوم، وفي معظم المناطق السوريّة. فالنظام السوري، كأيّ نظام ديكتاتوريّ، يعرف عينَ المعرفة أنّ قليلاً من ذلك الإكسير السحريّ، المسمّى «حريّة،» كفيلٌ مع الوقت بتقويض جبل جبروته.

وعلى الرغم من أنّ شباب الثورة اليوم اعتادوا ترديدَ تلك الكلمة كلَّ صباح في مدارسهم، باعتبارها ثاني ثالوث أهداف حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ الذي يحكم سوريا منذ ٤٨ عامًا، فإنّهم راحوا يكتشفون مع مرور الوقت كم كانت تلك الصيحة، التي سكنتْ صباحاتهم، أشبهَ بكليشيه جوفاء من ضمن جملة كليشيهات (وحدة، حريّة، اشتراكيّة) تمّ تفريغُها من معانيها ليبقى بريقُ اللفظ فحسب. اليوم، يختبر شبابُ الثورة تلك الخديعة الكبرى حين يستميت النظامُ في إسكات أصواتٍ تنادي بما يُفترض أن يكون هدفًا له، ولكنها هنا خارجة من عقاله وتحديده الضيّق لمفهوم «الحريّة.» بكلام آخر، ها هو اليوم يغتال الأصوات الخارجة من أفواه جموعٍ كان يستنهضها قبلاً لترفع عقيرتها صادحةً بأهدافه.

معظم الثورات الممتدّة عبر التاريخ كانت تنتهي بمطلب أو نتيجة: الحريّة. الثورة في سوريا بدأتْ بمطلب الحريّة، ويبدو أنّ هاجس التنظيم والتخطيط والرؤيا المستقبليّة أتت لاحقًا. لقد كان همُّ تسييس هذه التورة هو الأمر الذي راح يلحّ على طاولات العمل في الشهر الأخير على الأخصّ، ولاسيّما حين بدأت المعارضة التقليديّة تشعر بالهوّة التي تفصلها عن الحراك على الأرض وعن الشباب الثائر. على أننا لا نستطيع إلا أن نقف معجبين بهذه الخطوات الجبّارة التي قطعها شبابُ الثورة خلال شهور ثلاثة، إنْ من جهة التنسيق والتجمّع، أو من جهة إيصال المعلومة والفيديوهات رغمًا عن الحصار المنظّم المفروض عليها، أو من جهة التشبيك والتواصل.

وفي حين كانت الحريّة المطلبَ الأساسَ لأعظم العقول الاجتماعيّة ولأنبل التصوّرات والحركات السياسيّة ولمعظم ثورات الشعوب في العالم، إلا أنّ الرؤى والتصوّرات عن مفهوم الحرية ذاك تختلف اختلافًا كبيرًا. ذلك أنّ الخيال والحريّة أمران متشابكان إلى حدّ التطابق، ويبدو جليّاً أنّ الثورة في سوريا بدأتْ من تلك الفكرة الطوباويّة التي تشبه الحلم: الحريّة. ورمزيّة هذه الكلمة السحريّة تتلازم بشكل عضويّ اليوم مع مفهوم الكرامة؛ ذلك أنّ نزع روح العبوديّة، التي استقرّت في أذهان السوريين منذ عقود، يبدو أساسيّاً اليوم لبناء الوطن المشتهَى. لا وطن إلا مع الحريّة، عطفًا على قول الحكيم الفرنسيّ لابروير: «لا وطن في حالة الاستبداد.» إنّ هذا هو ما جعل الارتباط أساسيّاً بين الكرامة والحريّة، وبين الإرادة العارمة التي تكشّفتْ عنها عزيمةُ المتظاهرين في بناء وطنٍ حُرم السوريون الشعورَ بالانتماء إليه كمواطنين، لقناعتهم بأنه ملْكٌ لحزبٍ وأشخاصٍ ومؤسّساتٍ أمنيّة.

في كتاب **الأمير** للإيطالي ميكيافيلي (١٥٣٢)، وهو من أهمّ مَراجع قادة العالم وديكتاتوريه أمثال موسيليني وهتلر وستالين وغيرهم، تتلخّص واحدةٌ من القواعد المفصليّة التي على القائد الالتزامُ بها لدوام سيطرته: «الحرية تستهلك الموارد وتجلب الفقر. وعلى الأمير تجنّب الحريّة في مطلق الأحوال.» وبسبب التزام النظام السوريّ بهذه القاعدة الذهبيّة، ولأنه يعرف أنّ حلم الحريّة كان المحرّكَ الأساس لمعظم الثورات في العالم الحديث منذ الثورة الفرنسيّة عام ١٧٨٩، فإنّ الشعب السوريّ يدفع أثمانَ الحريّة تلك بتكلفة باهظة يبدو أنها تزداد يومًا بعد يوم. وللأسباب ذاتها تبدو ارتكاسةُ السلطات الأمنيّة أعتى تجاه تلك الكلمة؛ لذا تتوالى مقاطعُ الفيديو التي تُظهر رجالَ أمنٍ يركلون المتظاهرين، أو جثث المتظاهرين نفسسها، برعب الخائف وحقده، صارخين: «بدكون حريّة؟ ها؟؟؟». وقد تمّ تعذيبُ الكثير من الشباب في المعتقلات وكليشيه وحيدة تُلقى على مسامعهم بشكل متواتر: «بعْد بدكون حريّة؟ بدكون حريّة، ما؟!». وفي المقابل، يبدو مستغربًا أن تسمح السلطة، وإنْ بشكل ضيّق

ومحصور، لبعض المناطق بالتظاهر بلا مواجهاتٍ عنيفة، شرطَ الاكتفاء بترديد شعارات الحريّة من دون إسقاط النظام، إما استهزاءً بالهتاف، أو لأنّ الأمور خرجتْ من يد السلطة حقّاً. وقد حاولت السلطة الحصول على وعودٍ من قِبل قادة سياسيين، أو وجاهات دينيّة أو عشائريّة، بأن لا ينادي شبابهم بالإسقاط، بل بالحريّة فحسب!

تمّ تعذيبُ الكثير من الشباب في المعتقلات وكليشيه وحيدة تُلقى على مسامعهم بشكل متواتر: «بعْد بدكون حريّة؟ بدكون حريّة، ما؟!».

❖ ❖ ❖

يرتبط بالحريّة قلقٌ، بدا بشكل جزئيّ، وإنْ كان مبرّرًا، في الثورة اليوم. أوّل تجلياته هو عنفُ بعض المتظاهرين، وهو في بعض الحالات ردٌّ على العنف الفظيع الموجّه ضدّهم بالدرجة الأولى. وقد صبّ المتظاهرون جام ذلك الغضب على رموز السلطة، قامعةِ الحريّة؛ وتمثّل ذلك بدايةً في تمزيق صور الرئيس وحرقها (في درعا أولاً، وفي دوما وحمص وحماة تاليًا)، ومن ثم تكسير التماثيل في درعا ودير الزور. فأهالي دوما مثلاً، وهي مدينة قريبة إلى دمشق، اعتبروا أنّ مدينتهم تحرّرتْ، بعد شهر تقريبًا من بداية الثورة، حين نظّف شبابُها الشوارع من صور الرئيس (كدلالة رمزيّة)، وحين رحل رجالُ الأمن عنها من ثم، وإنْ لمدة موقّتة (كدلالة مباشرة). كما يبدو أنّ حرق مجموعةٍ من المباني التي ترمز إلى سلطات اقتصاديّة أو سياسيّة حزبيّة (كمراكز سيريتل وبيوت بعض رجالات السلطة والسياسة) جزءٌ من هذا القلق الذي يحمله ذلك الانتقالُ إلى الحريّة ـ وهذا أمر طبيعيّ. ولذلك من الطبيعيّ والمبرَّر أيضًا أن تخصِّص السلطة دوريّات شرطة مسلّحة ودورياتٍ من رجال الأمن لحماية رموزها، المتمثّلة في الصور والتماثيل، من غضب المتظاهرين. وهذا ما حصل في مدخل المعضمية، إحدى ضواحي دمشق، وفي «دوّار الرئيس» في مدينة حمص، وفي الكثير من المناطق المتوتّرة أيضًا. كما سُحبت التماثيلُ من مدينتيْ حماة ودير الزور استباقًا لتهشيمها. لقد كان الشعب يهشّم رموزًا مقرونةً في ذاكرته بالاستبداد، لتنظيف طريقه العريض نحو الحريّة.

❖ ❖ ❖

ثمة سؤال، مائع ودائم، توجّهه السلطة وأبواقها إلى المنتفضين: ما هي الحريّة التي يريدونها؟! وهذا الغمز من قناة وعي الشعب بحريّته والسخرية منها ذو أسباب تاريخيّة للأسف؛ ذلك أنّ الشارع السوريّ غُيّب، لمدّةٍ طويلة، عن مفهوم الحريّة بمعناها الشامل، مقابل نوع من التحرر الاجتماعيّ الذي اختُصرت «الحريّةُ» فيه. قبل أيّام قالت لي سيّدة تعارض الثورة، وذلك في معرض نقدها لاستمرار التظاهر، «إذا كانوا يريدون الحريّة فليلبسوا الشورتات.» الحريّة، من وجهة نظرها، تتلخّص في ارتداء الشورت. لا أغيّب بالتأكيد هذا الجانب من الحريّة، ولكنّ هذا الوهم بأن الحريّة موجودة في الشارع السوريّ جعل الكثيرين من الرافضين للثورة، أو المتخوّفين من تبعاتها، أو المشكّكين في ماهيّتها، يتساءلون عن سبب خروج الجموع لتطالب بالحريّة مع أنها تتمتّع بها؟! كما يتساءلون، عن قناعة حقيقيّة أو زائفة، عمّا إذا لم يكن الأمانُ الذين يعيشون فيه كافيًا لغفران أشياء كثيرةٍ تسبّبتْ بها أدواتُ تنفيذه، متناسين أنّ هذا الأمان المقنّع هو أمان القمع ـ وهذا ما توضّح مؤخّرًا حين صارت أدواتُ تنفيذ «الأمان» هي التي تسبّب خلخلة هذا الأمان، وهي التي تشعل نارَه، فلا أمان في النهاية إلا بالحرّية. كما يتناسوْن أنّ للحريّة تمظهراتٍ كثيرةً، منها حريّة العمل، وحرية الرأي، وحريّة الكلام، وحريّة الاعتقاد، وحريّة الانتخاب... والأهمّ الحريّة السياسيّة، المغيّبة، التي تتمثّل، في أقصى صورها، في الديمقراطيّة.

ربما لم يكن عمومُ الشعب يعرف التجلّيات القانونيّة الدقيقة للحريّة حين اندلعت الثورة، ولكنه يعرف أنه يريد الحريّة ـ وهذه غريزة إنسانيّة. وهذه المعرفة ناتجة ربما من تراكم اطّلاعه، في الخمس عشرة سنة الماضية على الأقلّ، على دقائق الحياة في مناطقَ أخرى من العالم عبر وسائل الاتصال الحديثة والمختلفة؛ كما هي ناتجة من إمكانيّة اختباره لمختلف الآراء والتحليلات التي كانت محصورة قبلاً برأي واحد وتحليل واحد.ويعرف عمومُ الشعب أيضًا أنّه مكبّل بعشرات السلاسل التي تمنعه من الحركة، وأنّ القبضة الأمنيّة تخنقه، وقد اختبر ذلك طويلاً من خلال فروع الأمن المختلفة التي تحصي عليه أنفاسَه وكلماتِه وتحرّكاته. يعرف أيضًا أنّ ثمة من يسرق له ماله؛ ولئن لم تكن لديه دلائلُ دقيقةٌ على ذلك، ففقرُ حاله هو الدليل الأهمّ. ويعرف أنّ هناك مَن يسوسه كقطيع الأغنام، ويقرّر ما يجب أن يحصل، ومع من سيصفّ، ومن سيعادي، من دون الأخذ في الاعتبار مزاجَه ورغباته. والأهم أنه يعرف مرارةَ ذلك كلّه، ولا يريد لابنه أن يعيش ما عاشه. وربّما هذا ما جعل أحدَ مسؤولي السلطة الكبار يقول بعد انتهاء نقاش مع أحد الوفود الشعبيّة: «كيف ستحاور شخصًا يعمل اليوم من أجل أحفاده؟»

لقد حاولت السلطاتُ كثيرًا، وعلى مدار الشهور الفائتة، أن تهمّش المطلب الأساس، الحريّة، عبر وسائل إعلامها أو أبواقها، إنْ بالتقليل من شأن ذلك المطلب، أو بالتشكيك في صدقه، أو باعتباره مجرّد جسر للوصول إلى غايات سيئة. بل راحت تختار أشخاصًا من الشارع لا يعرفون شيئًا عن قانون الطوارئ مثلاً لتسألهم رأيهم فيه، إيغالاً في تسفيه وعي الشعب

ومطالبه. لكنّ هذا الأمر زاد في استعار الشارع لكونه استهانةً في حقّه في الحريّة. وردّاً على هذه التسفيهات تأتي الشعارات المختلفة: «لا علويّة ولا سنّيّة، نحن بدْنا حريّة،» «سوريا بدها حريّة.» وكتجلّيات لتسفيه الإعلام الرسميّ لهذه الكلمة المخيفة وللمطالبين بها، تمتلئ الشوارعُ بلافتاتٍ ولوحاتٍ طرقيّة تقول: «الحريّة لا تبدأ بالتخريب، بل بتطبيق القانون.» صحيح أننا هنا إزاء اعتراف مبطّن بأنّ الحريّة لم تكن موجودة (فهي «تبدأ»)، ولكنها تفترض أن التخريب هو ما يريده المتظاهرون، وأنّ احترام القوانين التي يضعها النظامُ على قياسه وتعلّب انفلات الحرية من عقالها الأمنيّ هو الحلّ.

«الحريّة لا تبدأ بتدمير الممتلكات العامّة بل تبدأ بالنظام»؛ «الحريّة لا تبدأ بالشعارات بل تبدأ بالعمل»: جملتان أخريان على لوحات الإعلان الطرقيّة. مثلُ هذه الشعارات الجوفاء التي تحارب السلطةُ فيها هديرَ الحريّة ينطوي على إدانة مسبّقة للمتظاهرين، وعلى إعلان جليّ ـ كان حاضرًا في كلّ التصريحات والمؤتمرات والخطب الرسميّة ـ أنّ الراغبين في الحريّة مجرمون ومخرّبون لأنهم يهزّون بأصواتهم الجمودَ والسكونَ المكرّسيْن منذ عقود.

❖❖❖

عندما يصبح الإنسان أسيرَ رتابة الحياة، تغيّره أدنى نسمات الحريّة. وتلك النسمات، التي وصلتْ دغدغاتُها إلى سوريا من جهة مصر وتونس بالدرجة الأولى، لم تخلقْ هذا التغيير الجذريّ الذي ظهر لدى السوريين؛ ذلك أنّ التغيير عمره عقود طويلة من الكبت المتواصل والمتراكم. غير أنها جعلتْ تلك الحرارة المدفونة في الداخل تتحرّر من جليد الخوف الأمنيّ. ففي النهاية، كلمة «حريّة» آتية من الحر والحرارة في اللغة العربية؛ ووحدها النفوس الحارّة هي التي تشعل الثورة. وعلى الرغم من أنّ قلّة من المحلّلين والمفكّرين كانوا يتوقّعون قيامَ الثورة في سوريا، إلا أنها حدثتْ وانتهى الأمر. وربما علينا اليوم تحريرُ شعارها الأهمّ، «الحريّة،» من أسْرٍ إيديولوجيّ وسياسيّ يُستخدم ضدّها بشدة، وتحريرُها كذلك من الرؤية الغائمة التي تحيط بها، كي لا تضيع كلُّ تلك التضحيات المدفوعة من دماء الشباب. علينا إطلاقُ ذلك المفهوم الرائع من سجنه إلى الأمداء التي يستحقّها، ويستحقّها معه الشعبُ السوري الذي عانى طويلاً أسْرَ حريته حتى صار مجرّدُ مطالبته بها جرمًا لا تمْكن مسامحتُه عليه.

ثمة حادثة حقيقيّة تُروى اليوم نكتةً من نكات الثورة عن عجوز درعاويّة سألوها بعد فكّ الحصار جزئيّاً عن مدينتها درعا، وبعد الويلات التي رأتها ورآها أبناءُ مدينتها: «هل مازلت تريدين الحريّة يا خالة؟» فما كان من العجوز إلا أن صرختْ: «معاذ الله يا ابني، معاذ الله. نحن لا نريد الحريّة.. نحن نريد إسقاط النظام بس!»

روزا ياسين حسن

روائية وناشطة سوريّة.